

التفكك السياسي ودوره في أفول الأمم المتحضرة

-سقوط الأندلس نموذجاً-

عبد الجليل بن عبد القادر ملاح

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة غرداية

شهد العالم عموماً، والإسلامي منه على الخصوص، أنظمة سياسية مختلفة كانت ولا تزال عند عديد الشعوب والدول، الركيزة الأساسية التي ربطت وحدة المجتمعات المختلفة، ونظمت شؤونها السياسية وتعاملاتها الاقتصادية، وتحركاتها الاجتماعية والثقافية، كما قامت بعض هذه الدول بواجباتها الدينية... مما جعل الكثير منها يصفوا إلى مصاف الأمم المتحضرة، ونموذج الحضارة الرومانية، والمصرية والفارسية، وبعض الدول الأوربية دليل على ذلك، ولكن النمط السياسي الذي جاءت به الحضارة الإسلامية يختلف جذرياً عما جاءت به بقية الحضارات الأخرى، وذلك كون مقام "الخلافة" في الإسلام هو نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فقد جمعت الخلافة بين البعد الروحي والبعد المادي، وهو التوازن الحقيقي للإنسان المركب من مادة (الجسم)، وروح، على خلاف ما قامت به الحضارات الأخرى عندما اهتمت بجانب على حساب الجانب الآخر، فكانت إما حضارة مادية، أو حضارة دينية رهبانية، فكان ذلك من أقوى عوامل سقوطها وتفككها. والأمة الإسلامية رغم كون الخلافة هي النظام الوحيد الذي يستطيع جمع شتاتها (العربي، اللغوي، المذهبي، الجغرافي...) فإن واقعا اليوم وخلال حقب تاريخية ماضية هو على غير ذلك، وبذلك اختلفت وذهب ربحها وتعرضت للهجمات الخارجية والدسائس الداخلية، فأصبح الفرد لا يهتم بمشروع الأمة الواحدة بمقدار اهتمامه بمشروع الدولة القطرية، وغابت قوله تعالى: "وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ" المؤمنون:52. والأمة الواحدة ينبغي أن يكون لها رأس واحد يجمعها يمثلها خليفة المسلمين، ونموذج سقوط الخلافة العباسية سنة 1258م، والأندلس سنة 422هـ/1031م وصولاً لسقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م، وما انخر عنه من تدهور فكري وتفكك سياسي أكبر دليل على ذلك.

ومما سبق نطرح التساؤلات التالية:

- 1- هل الخلافة الإسلامية كنظام حكم، تمثل فعلاً نقطة التغيير الحضاري في الدولة الإسلامية؟
- 2- ما هو العامل الرئيس الذي أدى لسقوط الخلافة الأموية في الأندلس بعدما كان خليفته عبد الرحمن الناصر أقوى حاكم على وجه الأرض؟

3- ما النتائج السياسية التي ترتبت على سقوط الخلافة في الأندلس؟

4- هل هناك حلول يمكن تطبيقها لإرجاع الخلافة في العالم الإسلامي؟ أم ستكون فلسطين أندلس أخرى؟

I. مفهوم الخلافة في الإسلام:

شكل موضوع الخلافة في الدولة الإسلامية منذ وفاته عليه الصلاة والسلام نقطة خلاف كبيرة بين المسلمين، وذلك لتركه صلى الله عليه وسلم أمرها شورى بين المسلمين، فكانت خلافة أبو بكر الصديق (11-13هـ) بعد تجاذب للحديث بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، ثم عيّن الصديق، الفاروق عمر بن الخطاب (13-23هـ) ليخلفه بعد استشارته لكبار الصحابة، واختير ذو النورين عثمان بن عفان (23-35هـ) من الستة الذين اختار الفاروق عمر أن يكون منهم خليفة من بعده، ثم جاءت بيعة علي بن أبي طالب (36-40هـ) بعد فتنه مقتل الخليفة عثمان، وبعد عام الجماعة 41هـ الذي تنازل فيه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان أصبح الحكم وراثياً إلى أن انتهى أمر الأمويين على يد العباسيين سنة 132هـ، وفي الوقت نفسه كانت تجاذبات المذاهب الكبيرة على منصب الخليفة ومن الأحق بتوليته، فرأى الشيعة أنّ الخلافة باقية في علي بن أبي طالب ونسله من بعده، ووسع أهل السنة عموماً الخلافة في قبيلة قريش العربية، ورأى الخوارج وغيرهم أنّ الخلافة لا ترتبط بالنسب وليست حكراً على أحد.

بعد هذا التقديم العام آثرت أن أعرف الخلافة اصطلاحاً وباختصار كي نعرف أهمية منصب الخليفة على رأس الدولة الإسلامية، فنجد مثلاً الماوردي (ت450هـ) في كتابه الأحكام السلطانية يعرف الإمامة بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"¹ فخليفة المسلمين يجمع بين الدين والسياسة، وإلى هذا ذهب ابن خلدون (ت808هـ/1406م) في مقدمته بقوله: "والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"، ويسمى الخليفة بهذا الاسم لأنه يخلف النبي في أمته، ويسمى إماماً تشبيهاً له بإمام الصلاة في إتباعه والافتدائه به² وقد اختلفت المصادر في حكم منصب "الخليفة" فقالت بضرورته جلّ المصادر، ولكن اختلفوا في وجوب منصب الخليفة بين الوجوب الشرعي والوجوب العقلي (لتحقيق مقاصد الشريعة)³ وللخليفة شروط وجب توفرها فيه إذا كانت اختيارية، منها:

1- العلم: وذلك لتنفيذ أحكام الله، ويحسن به أن يكون مجتهداً. 2- العدالة: وهذا لتحقيق عدل الله على الأرض فهي منصب ديني وسياسي. 3- الكفاية: كي يكون جريئاً في إقامة الحدود، وحماية الدين وحمل راية الجهاد وتدير الملك. 4- سلامة الحواس والأعضاء من النقص. 5- النسب القرشي: اختلفوا في هذا الشرط، إلا أنّ كبار الصحابة قد احتجوا به في سقيفة بني ساعدة لما همّ الأنصار ببيعة سعد بن عباد⁴ وللشيعة والخوارج في باب الإمامة أقوال⁵ وبما أنّ موضوع المداخلية سيتناول التفكك السياسي في الأندلس فإنّ أغلب فقهاءها كانوا يرون في القرشية شرط كما سنبين لاحقاً إن شاء الله.

¹ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، ط1، الكويت، 1409هـ/1989م، ص3.

² أجاز البعض بأخذ معنى "الخليفة" أنّه خليفة عن الله في الأرض، لقوله تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة» البقرة 30 وقوله تعالى: «ويجعلنكم خلفاء الأرض» النمل 62، ولكن الجمهور على أنّه خليفة رسول الله، وإلى ذلك ذهب الخليفة أبو بكر الصديق عندما دُعي بخليفة الله فقال: "لست خليفة الله ولكنّي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم" وذلك أنّ الاستخلاف يكون في حق الغائب وليس في حق الحاضر. أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421هـ/2001م، 239/1.

³ احتج أهل الوجوب بالشرع، كون الإجماع عقد عليه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العصور، وأنّ الوازع له يكون بشرع من الله تُسلّم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد، وقال من رأى وجوبه عقلاً، بحكم ضرورة سير حياة المجموعات البشرية من دون رأس لهم ينظم حياتهم ويمنحهم حقوقهم ويفرض عليهم واجباتهم، وقد شدّ البعض بإمكانية أن لا يكون للمجتمع خليفة إذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله. للتوسع أنظر: ابن خلدون، تاريخ، 240/1-241.

⁴ يمكن الرجوع لشروط أخرى في خليفة المسلمين، ولكن إذا رجعنا لمسألة النسب فإنّ الموضوع مجال خلاف حيث ذكر الحافظ السيوطي (ت911هـ) أحاديث واقوال في ضرورة النسب القرشي، وقد عدل عن النسب بعض العلماء لما تلاشت عصبية قريش وداخلهم الأعاجم، للتوسع في الموضوع أكثر أنظر: جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص3-7. ابن خلدون، تاريخ، 241/1-245.

⁵ للتوسع في هذا أنظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص4-5. ابن خلدون، تاريخ، 246/1-252.

II. محطات تاريخية للأندلس قبل قيام الخلافة الأموية:

فتحت الأندلس¹ رسمياً سنة 92هـ/711م، من طرف والي طنجة، القائد البربري "طارق بن زياد" وقد عيّنه موسى بن نصير سنة 85هـ/704-705م² ولكن الطليعة الاستكشافية الأولى كانت على يد أبو زرعة طريف بن مالك (ملوك) في رمضان 91هـ/جويلية 710م قوامها مائة فارس، وأربعمائة راجل، الذي نزل جنوب إسبانيا في الجزيرة المسماة "بالوماس" وهي الموضع الذي يسمى باسمه إلى اليوم "طريفة" Tarifa وكانت الحملة ناجحة، وأوامر الفتح صدرت من والي إفريقية (بلاد المغرب الإسلامي) موسى بن نصير اللخمي (86-96هـ/705-715م)³، وأثناء حكم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) لينزل فيها حكم ملوك القوط.⁴

¹ الأندلس: هي شبه جزيرة الأندلس، أو شبه جزيرة إيبيريا، أو إسبانيا والبرتغال (لوزيتانيا La Lusitania) الحاليتين، تقع جنوب غرب أوروبا، يحدها شرقاً البحر المتوسط، وغرباً المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)، وجنوباً مضيق جبل طارق (بحر الزقاق أو المجاز)، وشمالاً سلسلة جبال البرينات (البرانس) Pirineos التي تتخللها مجموعة من المضائق والممرات التي تصلها بفرنسا في الشمال. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.س.ط، ص 18، 19.

² طارق بن زياد: قيل ابن عمرو، وأختلف في أصله، فعده البعض عربي من صدف، وآخرون فارسي همداني، والغالبية على أنه بربري من قبيلة نفزة، أورد ابن عذارى نسبه بأنه طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهون بن ورفجوم بن بنزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو، كان طويل القامة ضخم الهامة، أشقر اللون، وتبقى سيرته مجهولة في المصادر. أنظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983م، ج 2/5. أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، ج 1/ص 230.

³ موسى بن نصير: أبو عبد الرحمن اللخمي، يعتبر من التابعين، عيّن قبل قدومه المغرب على خراج البصرة، و غزا قبرص، لم يهزم له جيش قط، أكمل فتح المغرب حتى وصل أقصى السوس، في عهده فتح واليه على طنجة طارق بن زياد الأندلس، رجع للشام سنة 96هـ/715م، وتوفي سنة 97هـ/716م. عن تفاصيل سيرته أنظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مطابع دار البيان الحديثة، ط1، 1424هـ/2003م، ج 4/ص 265-267. أبو العباس شهاب الدين أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، ج 1/83-87. محمد بن عميرة، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008م، ص 157-166.

⁴ القوط: هم من القبائل الجرمانية التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية في أوائل القرن 5م، والقوط الغربيين Visigode هم الذين أقاموا أول مملكة لهم في جنوب غالة (فرنسا) وشمال إسبانيا عاصمتها تولوز بعد أن صالحهم ملك روما، وهم الذين استوطنوا الأندلس بعد سقوط عاصمتهم في يد الفرنجة سنة 507م، وقد عملوا على إزاحة القبائل الجرمانية الأخرى كالوندال، كانت عاصمتهم مدينة ماردة، ثم حولت إلى مدينة طليطلة، عدد ملوكهم سبعة وثلاثين ملكاً، أما الذين ملكوا الأندلس فتسعة، آخرهم "الدريق بن تيودوفريدو" الذي قتله طارق بن زياد. للتوسع أنظر: ابن عذارى، البيان، ج 2/ص 2. المقرئ، النفع، ج 1/ص 139، 140. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م، ص 51-60. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.س.ط، ص 30، 31.

يفتخر الأندلسيون أنّ بلدهم قد تحقق فيه وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بشرّ بفتحها¹، كما فتنت الأندلس بجمالها ومناظرها الطبيعية الخلابة كثيرا من العلماء والحكام، وتغنى بها كثير من الشعراء، منهم أبو إسحاق ابن خفاجة الذي أشعر:

يا أهل أندلس لله دَرَكَمٌ ماءٌ و ظلٌّ و أنهارٌ و أشجارٌ
ما جنة الخلد إلا في دياركمُ وهذه كنت لو خيّرت أختارُ
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ.²

تعاقب على حكمها قبل قيام الدولة الأموية، مجموعة من الحكام اتفقت المصادر على تسمية فترة حكمهم بعهد الولاة (96-138هـ/715-755م) وقد حكم خلال هذه الفترة عشرون واليا، كلهم من أصل عربي، ومنهم من تكررت فترة حكمه مرتين، كعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (الأولى سنة 102هـ/721م، والثانية 112-114هـ/730-732م) وعبد الملك بن قطن الفهري (الأولى 114-116هـ/732-734م، والثانية 123-124هـ/741-742م)³ ومنهم من لم تدم مدة حكمه سنة كأيوب بن حبيب اللخمي (97هـ) الذي حوّل العاصمة من اشبيلية إلى قرطبة⁴ وفي عهدهم وصل الفاتحون المسلمون لبلاد الفرنجة (فرنسا الحالية) مثل السمع بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي أسستشهد في معركة بواتيه Poitiers (بلاط الشهداء)

¹ بشرّ النبي صلى الله عليه وسلم بفتح الأندلس في الحديث النبوي الذي جاء فيه: حدّثنا أبو النعمان، حدّثنا حمّاد بن زيد عن يحيى عن محمد بن يحيى بن حبان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "حدثني أم حرام أنّ النبي صلى الله عليه قال يوما في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، قلت يا رسول الله ما يضحكك؟ قال: عجبت من قوم من أمّتي يركبون البحر كالمملوك على الأسرّة، فقلت: يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقال مثل ذلك مرتين أو ثلاثا، قلت: رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم، فيقول: أنت من الأولين، فتزوج بها عبادة بن الصامت، فخرج إلى الغزو، فلما رجعت قرّبت دابة لتركبها، فوقعت فاندقت عنقها". قيل أنّ الأندلس هي المقصودة فيه، انظر: أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق رويّة عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، ص11-13. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.س.ط، 6/ 87 و88.

² لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بوع قبيل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق، ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان، 1956.

³ عنهما أنظر: مجهول، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بويابة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1427هـ/2007م، ص140، ص156. ابن عذارى، البيان، ج2/ص26، 28، 30. محمد سهيل طقّوش، تاريخ المسلمين في الأندلس (91-897هـ/710-1492م)، دار النفائس، ط2، 1429هـ/2008م، ص74، 77-79. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص138، 140-149.

⁴ عنهما أنظر: مجهول، تاريخ الأندلس، ص156، ابن عذارى، البيان، ج2/ص27، 25. طقّوش، مرجع سابق، ص71، 70، 76.

أمام شارل مارتل Charles Martel رمضان 114هـ/أكتوبر 732م.¹ وكان آخر ولائها يوسف بن عبد الرحمان الفهري، ولكن قائده الصميل بن حاتم كان هو الحاكم الفعلي للأندلس² وفي عهده انتهى عهد الولاة ليحكم الأمويون الأندلس.

حكمت الخلافة الأموية المشرق فيما بين (41-132هـ/661-749م) ثم تجدد ملكهم في الأندلس طيلة الفترة الممتدة من (138-422هـ/756-1031م)، إذ بعد الاضطرابات التي حدثت في المشرق والتي انتهت بسقوط الخلافة الأموية في دمشق وإعلان الخلافة العباسية عام 132هـ/749م، تعقبت الأخيرة الأمويين إلى أن فرّ أحد أبناء هذه الأسرة وهو عبد الرحمان بن معاوية سنة 138هـ/756م إلى الأندلس، وأسس بها إمارة قوية مستقلة عن المغرب الإسلامي، وعن الخلافة العباسية في المشرق³ وقد مرّ حكم الأمويين بمرحلتين هما عهد الإمارة وعهد الخلافة، أما عهد الإمارة (138-316هـ/756-929م) فسمي بذلك لأنّ الحاكم في الأندلس كان له لقب أمير وليس خليفة، وقد بدأ بعبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (138-172هـ/756-788م)⁴ مؤسس الدولة وواضع قواعدها بالأندلس، وكان مذهب الإمام الأوزاعي هو المذهب الرسمي للدولة، ورغم أنّ موضوع تجديد الخلافة الأموية في الأندلس كان له أثره في شخص عبد الرحمن الداخل، إلاّ أنّه لم يعلن نفسه خليفة للمسلمين ولم يطلب الدعاء له على المنابر وإتّما قام بالدعوة للعباسيين، حيث ذكر المقرّي "ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق، وكان يدعو للمنصور (الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي)، ثم قطع الخطبة" ولم يقطعها إلاّ بعد شهر دون السنة، وذلك لما زاره عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، وأشار إليه بقطع الخطبة للعباسيين⁵، ونفس الشيء ذهب إليه ابن حزم⁶ بمعنى أنّه كان ذكياً، فلو طلب الخلافة لتعارض ذلك مع الإمامة الشرعية

¹ عن فتوحات هؤلاء الولاة، وعن معركة بلاط الشهداء أنظر: عبد الرحمن علي حجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، ط5، 1418هـ/1997م، ص 134، 193-202. محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي 92-897هـ/711-1492م، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مجموعة من الكتاب، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 1999، ص64.

² ، لتفاصيل ثوراتهما انظر: لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق و تعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان، 1956، ص 8. ابن عذارى، البيان، 48/2 وما بعدها. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص183 و ما بعدها. عبد المجيد النعني، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.س.ط، ص 143 و ما بعدها.

³ لمزيد من التوضيح عن مسيرة "عبد الرحمان الداخل بن معاوية" من المشرق إلى الأندلس ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م، 362/4. ابن عذارى، البيان، 40/2 و ما بعدها. المقرّي، النفع، 322/1. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، لبنان ومكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط15، 1422هـ/2001م، 187/2 - 188. النعني، مرجع سابق، ص 133 - 134.

⁴ يكتني أبا المطرف وقيل أبا يزيد و قيل أبا سليمان، ولقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني أمية، ولقبه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بصقر قريش، وهو عبد الرحمان الأول، لمعرفة المزيد عن نسب وسيرة الأمير، انظر: ابن الأبار القضاعي، كتاب الحلة السيرة، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1985م، ص35. ابن خلدون، تاريخ، 154/4 وما بعدها. ابن عذارى، البيان، 47/2 وما بعدها. المقرّي: النفع، 318/1 وما بعدها، 24/4 وما بعدها. مجهول، التاريخ، ص53. محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1390هـ/1987م، ص 139 وما بعدها.

⁵ ابن الأبار، الحلة، 36/1. المقرّي، النفع، 318/1. حجي، التاريخ الأندلسي، ص240.

⁶ ابن حزم، رسائل ابن حزم - رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987م، ص84.

العباسية في المشرق، ولألب عليه ذلك الفقهاء والعلماء وربما سقطت الدولة جراء ذلك، أو كما قال حسين مؤنس فإنه يفتح الباب لأي منافس للبيت الأموي في الأندلس، ويحصل المنافس على تأييد الخلافة العباسية (الخلافة العامة) لذلك كان يدعوا للخليفة العباسي زنا حتى قضى على منافسيه ومعارضيه واستقر له الأمر في الأندلس¹ وكان يسمى بابن الخلائف، وبعد وفاته خلفه ابنه هشام الرضى (172-180هـ/788-796م) وكان حاكما ورعا تقياً، ولهذا لقب بالرضى، وشبهه بعض المؤرخين بالخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وفي عهده بدأ المذهب المالكي يتوسع على حساب المذهب الأوزاعي² ثم خلفه ابنه الحكم الرضى (180-206هـ/796-822م) الذي في عهده تمكن المذهب المالكي في الدولة³ ثم خلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/822-852م)⁴ وبعد وفاة الأخير شهدت الأندلس عصر الفتن والتمزق أو ما سمته بعض المصادر بعصر الطوائف الأول الذي دام 62 سنة حيث حكم خلال هذه الفترة محمد بن عبد الرحمان الأوسط (238-273هـ/852-886م) ثم ابنه المنذر بن محمد (273-275هـ/886-888م) ثم أخوه عبد الله بن محمد (275-300هـ/888-912م) وفي هذه الظروف السياسية الصعبة التي شهدتها الأندلس من إنقسام قاده العرب والبربر والمولودون، تولى الإمارة الأموية الأمير "عبد الرحمان الثالث" الملقب (الناصر لدين الله) وسنه ثلاثة وعشرون سنة، وعلى الرغم من أنه ليس ابنا مباشرا للأمير عبد الله بن محمد، بل هو حفيدا له - أي لا يحق له الحكم بطريقة النظام المتبع - فإن أعمامه زهدوا في الحكم للأخطار والمكاره المحفوظة بالحاكم خلال هذه الفترة.⁵ وقد حقق الناصر في فترة وجيزة ما لم يحققه الأمراء من قبله، فقد أصبح أقوى حاكم على وجه الأرض، وقد دامت إمارته (300-316هـ/912-929م)، ويعتبر تاريخ 316هـ/929م تاريخ فاصل ومشهود في الأندلس على الخصوص والعالم الإسلامي على العموم، إذ حوّل الإمارة الأموية إلى خلافة.

III. الخلافة الأموية (316-422هـ/929-1031م): وسمي كذلك لتحويل نظام الحكم من الإمارة إلى الخلافة في عهد عبد الرحمن الناصر (316-350هـ/929-961م)، ولعل أهم حدث ميز فترة حكمه الطويلة (50 سنة) هو أنه أصبح أقوى حاكم على وجه الأرض، وجاءه الملوك والحكام من كل صوب يريظون الصداقة معه، وما يخدم المداخلة هو أنه أعلن نفسه خليفة للمسلمين في الغرب الإسلامي سنة 316هـ/929م واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وذلك لعدة عوامل منها:

¹ حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص14.

² للتوسع في سيرة الأمير وأهم الفتن والحروب التي قامت في عهده، انظر: المقرئ، النسخ 327/1 وما بعدها. ابن الخطيب، تاريخ، ص 12-13. ابن عذارى، البيان، 2/62-63. العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص 329 وما بعدها. النعنع، مرجع سابق، ص205 وما بعدها. مؤنس، شيوخ، ص13.

³ للتوسع في سيرة الأمير الحكم وأهم الفتن والحروب التي قامت في عهده، انظر: المقرئ، النسخ 327/1 وما بعدها. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 329 وما بعدها. النعنع، مرجع سابق، ص205 وما بعدها. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص220 و ما بعدها. مؤنس، شيوخ، ص 20 وما بعدها.

⁴ الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، ص16-17. ابن خلدون: تاريخ 163/4 وما بعدها. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة- دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1410هـ/1989م، ص75-78. ابن الخطيب، تاريخ، ص 18 وما بعدها. ابن عذارى، البيان، 2/80.

⁵ للتوضيح أكثر انظر: ابن عذارى، البيان، 2/156-157. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص280. النعنع، مرجع سابق، ص315-316. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص377. عنان، تراجم، 167 وما بعدها.

➤ ضعف الخلافة العباسية في المشرق، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي.

➤ قيام خلافة شيعية في المغرب (الخلافة الفاطمية) والتي كانت تطمح في السيطرة على الأندلس. - رفع مكانة أمير قرطبة الدينية والسياسية.

➤ الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون عبد الرحمان خليفة لهم¹.

وبإعلانه الخلافة، يكون العالم الإسلامي بثلاث خلفاء: العباسي في المشرق (بغداد)، الفاطمي في المغرب (المهدية)، والأموي في الأندلس (قرطبة).

ارتبط الغرب الإسلامي روحيا برابطة الولاء للخلافة الأموية بدلا من الخلافة الفاطمية العبيدية، وتماسكت الأندلس جغرافيا ومذهبيا واجتماعيا بعدما سادت التفرقة والنزاعات العصبية، كما توحدت سياسيا بعد القضاء على الكيانات السياسية الجديدة التي تشكلت، وكانت نتائج ذلك ازدهار الأندلس في شتى المجالات، وتماسكت الأندلس مذهبيا بقياده فقهاء المالكية في الجزيرة.

وبعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر خلفه ابنه "الحكم الثاني" الملقب بالمستنصر بالله (350-366هـ/961-976م)، وقد كانت لهذا الخليفة اهتمامات علمية مشهودة²، ثم خلفه ابنه الصبي "هشام الثاني المؤيد بالله" سنة 366هـ/976م، كان سن هشام حينها عشرة أعوام وثمانية أشهر³، وكان أبوه الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر⁴ ورغم أن خليفة المسلمين في الأندلس كان صبيبا وتغلّب على حكمه محمد بن أبي عامر فإنّ الولاء الروحي للخلافة بقي راسخا فيها، وقد جرد المنصور الخليفة من جميع متابعات أمر

¹ عن سيرة الخليفة وأسباب إعلانه الخلافة، انظر: ابن عذارى، البيان، 156/2 وما بعدها. ابن الخطيب، تاريخ، ص 28 وما بعدها. ابن خلدون: تاريخ، 4/178 وما بعدها. المقرئ، النسخ، 1/339. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 378 وما بعدها. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 286 وما بعدها.

² لمعرفة هذه النهضة ينظر: ابن حيان الأندلسي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية صيدا، ط1، بيروت، 1426هـ/2006م، ص 13 وما بعدها. المقرئ، النسخ، 1/369. ابن خلدون، تاريخ، 4/187. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 420. النعنع، مرجع سابق، ص 408 وما بعدها.

³ مجهول، تاريخ الأندلس، ص 216.

⁴ أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني، ولد في الجزيرة الخضراء 326هـ/983م، اختار محمد طريق العلم والفقه، من أساتذته الأديب أبو علي القالي البغدادي، تولى بعض الخطط الدينية ثم دخل شؤون السياسة، وذلك للطموح والهمة العالية التي كانت له حتى وردت فيه عدّة قصص منها أنّه كان مرّة كان جالسا مع ثلاثة من طلاب العلم معه فقال لهم: لا بد أن أملك الأندلس وأملك الرجال وأقود الجيوش، ويُنفذ حكمي في جميع الأندلس فليتخبر كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إليّ الأمر، فقال أحدهم توليني قضاء كورة رية، والثاني قال توليني حسة السوق، والثالث قال: إن أفضى إليك الأمر فأمر أن يطاف بي في قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب، وأن اطلّى بالعسل حتى يجتمع عليّ الذباب والنحل، ثم افترقوا على هذا، فلما أفضى الامر لابن أبي عامر كما تمنى هو أعطى الثلاثة كلا بما تمنى. للتوسع في سيرته وأهم مناصبه الدينية والسياسية التي تولّاها وكيف استطاع أن يكون الرجل الأول في الأندلس، انظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ط5، ص 81. عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م، ص 21-23. ابن عذارى، البيان، 2/253 وما بعدها. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 59، 77-78. فوزي عناد القبوري العتيبي، فقهاء الأندلس والمشروع العامري (367-399هـ/978-1009م)، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1431هـ/2010م، ص 24 وما بعدها.

الخلافة ولم يترك له من السلطة سوى الدعوة باسمه في خطبة الجمعة، وحجبه عن رؤية الناس قائلا: إنّ الخليفة يتعبد لله¹، وانفرد بالسلطة بعد أن قضى على المعارضة القوية ممثلة في صقالبة القصر، والوزير الحاجب جعفر المصحفي، والقائد غالب بن عبد الرحمان، بل لم يتوان حتى في قتل ابنه عبد الله المعارض له، هذا ما جعل ابن عذارى يقول عن المنصور بأنه جمع بين الدهاء والمكر والسياسة، وكانت له رغم ذلك عدّة غزوات ضد ممالك الشمال التي وصل عدد غزواته إليها ستة وخمسين غزوة² فرغم كل هذه السلطة التي حازها العامريون في ظل الخلافة الأموية فإنّ الوحدة الروحية للخليفة والسياسية للأندلس الأموية قد كانت موجودة ومرسخة في قلوب وعقول المجتمع الأندلسي، وسأقف هنا وقفة هامة في أمر المنصور محمد بن أبي عامر الذي حاول نقل الخلافة إليه على اعتبار أنّه المتحكم الحقيقي في الحكم، فكان رد الفقهاء قويا، خاصة وأنّ العلماء وهم من كبار فقهاء المالكية كانوا يرون في النسب القرشي شرط أساس في الخلافة، فقد ذكر ابن حزم في نقط العروس واقعة المنصور العامري وطلبه الخلافة وذلك ضمن جملة من الذين طلبوها من غير الخوارج ولم ينالوها، وبدوره ابن حزم كان قد نقلها عن أبيه³ الذي كان من وزراء الدولة العامرية وحضر الجلسة، ومما جاء فيها أنّ المنصور كان قد جمع خواصه والفقهاء للمشورة في نقل الخلافة الشرعية إليه وقطعها عن بني أمية، وكان من جملة الحاضرين عبد الله بن عياش، وابن فطيس، وأب ابن حزم، كما حضر جلسة المشورة بعض الفقهاء منهم محمد بن يقي بن زرب (ت381هـ)⁴، وأبو عمر بن المكوي⁵ والأصيلي⁶.

¹ ابن عذارى، البيان، 278/2.

² لمعرفة أسماء هذه الغزوات وما وقع فيها أنظر: مجهول، تاريخ الأندلس، ص226-236.

³ أبو عمر الوزير، أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب: والد الفقيه الظاهري ابن حزم، من أهل العلم والأدب والخير، تدرج في المناصب حتى تولى الوزارة سنة 381هـ ووصلت رفعتة حتى صير إليه خاتمه، ذكر الفقيه الظاهري ابن حزم نصيحة أباه له في بيت شعري جاء فيه: إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن***على حالة إلا رضيت بدونها. توفي قريبا من الأربعمئة. الحميدي، الجذوة، 112-113. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ابن الأبار)، إعتاب الكتاب، تح وت. صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط1، سوريا، 1380هـ/1961م، ص191-193.

⁴ محمد بن يقي بن زرب: ذكر ابن فرحون بأنه كان أحفظ أهل زمانه لمذهب مالك، كما قال له القاضي ابن السليم: "لو رآك ابن القاسم لعجب منك يا أبا بكر"، كانت له مشاورا، ولما توفي القاضي ابن السليم تولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة 367هـ، ورغم المكانة التي منحها له ابن أبي عامر فإنه لم يقبل له يدا، كان ميلاد سنة 317هـ ووفاته في رمضان سنة 381هـ. ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. مأمون بن محي الدين الجتّان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1996م، ص364.

⁵ أبو عمر أحمد بن عبد الملك الأشبيلي، المعروف بابن المكوي مولى بني أمية.

⁶ أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأصيلي: قيل أنّه ولد بأصيلا من عدوة المغرب، وقيل أصله من شذونة وقيل من الجزيرة الخضراء، دخل قرطبة سنة 342هـ حسب ما ذكره ابن الفرضي (عدّه من الغرياء)، ثم رحل للمشرق سنة 351هـ، وأخذ العلم عن كثير من الفقهاء، ففي إفريقية أخذ عن الشيخ أبي العباس الأبياني التونسي وغيره، وبمصر عن القاطي أبا الطاهر البغدادي وغيره، وبمكة من أبي زيد المرزوي، وسمع بمكة والعراق، وسمع منه البخاري، والدار قطني، ولما رجع الأندلس وجد الخليفة الحكم قد توفي، وقد سمع منه خلق كثير منهم أبو عمران الفاسي، وصفه الكثير بسعة العلم والفهم، قربه ابن أبي عامر وولاه قضاء سرقسطة، ثم أرجع قرطبة وأصبح رأيا في الشورى، توفي عهد الحاجب عبد الملك المظفر سنة 392هـ. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق رويّة عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1997م، ص205-206. القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/1998م، 241/2-245.

وبعد أن طرح المنصور ما أراد أن يُقدم عليه¹ كانت الآراء حسب ما ذكره ابن حزم كما يلي:

✚ ابن المكوي والأصيلي وافقاه على ذلك، وأثناء النقاش قال له الأصيلي: "يا مولاي عربي ظابط خير من قرشي مضيع"² أما ابن المكوي، فقال: "يا مولاي ومثلك يفكر في هذا وأنت الكل وكل شئ بيدك، وإنما يرغب في الأسماء من لا يحقّق، والمدار على الحقيقة، وهي بيدك"³، وردّها هذا كان بعد قول الفقيه ابن زرب ببقاء هذا الأمر في قريش، وكما سبق وأن عرفنا بأنّ ابن أبي عامر عربي قحطاني.

✚ أحمد بن سعيد بن حزم الذي قال له: "إني أخاف من هذا تحريك ساكن، والأمور كلها بيدك، ومثلك لا ينافس في هذا المعنى"⁴ وهنا نرى موافقة مبطنة لذلك، ولكن الخشية من الفتنة هي المانعة من الإقدام على ذلك، ولربما كان يرى الخلافة في غير قريش، أو أو أنّه خشى من غضب المنصور وسطوته، ولكن مهما يكن فقد كان كلامه يدل على حكمته وفهمه للواقع.

✚ الفقيه والقاضي محمد بن يعقوب بن زرب، هنا تجلّ الأثر الكبير لهذا الفقيه المالكي، إذ بمجرد ما سمع موضوع المشورة التي جمعهم لأجلها المنصور العامري حتى وقف في وجه المنصور وطموحه السياسي الكبير لأن يكون خليفة، وقد صوّر ابن حزم هذا الجدل "قال له (ابن زرب): وصاحب الأمر (يقصد الخليفة هشام المؤيد) ما شأنه؟ فقال له: لا يصلح لهذا، فقال له: يُرى ويجزّب، فقال له: أي مسائل الفقه تريد أن نسأله قال: لا، ولكن في مسائل السياسة وتديير المملكة، قال: فإن لم يقم، قال: يُنظر في قريش (وبهذا قطع عنه أمل التسمي بالخلافة كونه لم يكن من قريش)، فأعرض عنه مغضبا"⁵ هذا هو موقف ابن زرب، الحوار القوي الذي دار بينه وبين ابن زرب بحضور حاشيته وبعض الفقهاء، حيث أجدّه اختصر لابن أبي عامر الواقع السياسي الحقيقي وقطع له أكبر طموح كان ينتظره ابن أبي عامر بعدما مهّد له، أي أنّه ذكره بوجود خليفة حقيقي لا يزال على قيد الحياة وهو هشام المؤيد، ولما قلل ابن أبي عامر من قيمته في تديير أمور الحكم، سأله بأن يتركه ليحزّب وبعدها نحكم على فشل، والرسالة هنا واضحة وهي أنّك قد حجرت عليه في قصره ولم تترك له مجالاً لتديير شؤون الحكم بنفسه ثمّ لما قال فإن لم يقدر على تديير الملك، قال لا بد من البحث على قرشي وقد لا يكون أموي، ولكن وجب أن يكون قرشي، وهذا يخالف القبيلة التي ينتمي لها ابن أبي عامر، ثمّ واصل ابن حزم نهاية هذه الجلسة بقوله: "قاموا واحدا واحدا، فلما قام القاضي وسلّم عليه قال: اخرجوا بين يدي الفقيه، فعظم ذلك على ابن زرب، وقال: لا بأس هذا ما لا تقدروا عزلنا عنه، ونهض إلى منزله، فمات بعد أيام يسيرة جدا"⁶ وهي توضح حقيقة الصدمة التي لقيها ابن أبي عامر من الفقيه ابن زرب رغم موافقة الأصيلي وغيره على نقل الخلافة للعامريين، كما يمكن أن تكون هذه الجلسة قد كانت سنة 381هـ/990م كونها السنة التي توفي فيها ابن زرب، وابن حزم قال "فمات بعد أيام يسيرة جدا"⁷ وهكذا لم يجزّ المنصور العامري على طلبها مرة أخرى، ولما توفي ابن أبي عامر سنة 392هـ، نقشت على قبره الأبيات التالية:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنتك بالعيون تراه
تا الله ما ملك الجزيرة مثله حقا ولا قاد الجيوش سواه

¹ ابن حزم، تقط العروس، ص 86.

² نفسه، ص 87.

³ نفسه، ص 87.

⁴ نفسه، ص 86/2.

⁵ نفسه، ص 86/2-87.

⁶ ابن حزم، تقط العروس، رسائل ابن حزم، ص 86/2-87.

⁷ نفسه، ص 87/2.

وعند آخرين: تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا ولا يجمي الثغور سواه¹

ما نستفيده من وراء كل ذلك أنّ الخلافة الإسلامية الأموية في الأندلس رغم ضعف خليفتها وتغلب العامريين عليها فإنّها كانت موحدة للأندلسيين وجامعة لوحدتهم السياسية، ولكن المشروع العامري كما سماه أحد الدارسين المعاصرين للحقبة العامرية² لنقل الخلافة إليهم بقي مستمرا، فبعد وفاة المنصور خلفه ابنه عبد الملك (392-399هـ/1002-1008م)، ولم يكن له عمل علني يوحى مباشرة بنقل الخلافة رغم أنّه تسمى بالحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور، وبهذا يكون أول من اجتمع له لقبان من ألقاب الملوك في الأندلس³، ثم خلفه ابنه الثاني "عبد الرحمن" 399هـ/1008م الملقب بشنحول⁴، وفي عهد الأخير برزت مسألة الخلافة للعلن، وذلك بعد أن طلب عبد الرحمن شنحول (الحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة) ولاية العهد من الخليفة الأموي هشام المؤيد من بعده، ولم يمر من حجابته إلا شهر ونصف⁵ وكان له ذلك في ربيع الأول 399هـ فقد وجد في نص البيعة بولاية العهد لعبد الرحمن شنحول ما يلي: [...] ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر [مدا، ويجوي من خلال الخير ما حواه... أمل ان يكون ولي عهده القحطانيّ الذي جاء فيه الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه"، ونحن هنا نريد موقف الفقهاء من هذا الفعل، فكاتب نص ولاية العهد هو كاتب الرسائل "أبي حفص أحمد بن برد"⁶ وأول الشهود على نص البيعة قاضي الجماعة "أحمد بن عبد الله بن ذكوان"⁷ ولا ندري لما لم يذكر ابن ذكوان وغيره حديث

¹ ابن عذارى، البيان، 301/2. ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدرى، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط1، 1419هـ/1998م، 47/4. ننعني، تاريخ الدولة، ص455.

² هو فوزي عناد القبوري العتيبي صاحب "فقهاء الأندلس والمشروع العامري".

³ وقد أشاد كثير من الشعراء به وباللقاب التي له، منها: دعاك أمير المؤمنين المظفر وسماك سيف الدولة المتخيّرًا. للتوسع أكثر أنظر: ابن عذارى، البيان، 17/3 وما بعدها.

⁴ شنحول: هو تصغير لشانجة، إذ كانت أمه عبدة النفارية بنت شانجة الملك النصراني ملك بنبلونة Sancho Garcés Abarca تدعو به لتتذكر اسم أبيها شانجة الملك النصراني، مع العلم أنّ الملك النصراني أهدى ابنته للمنصور الذي تزوجها وأنجبت له ابنه عبد الرحمان، وقد كانت من خير نساء المنصور تدئيًا، وحسبا أصيلا، وقيل هو أحد إخوتها. ابن عذارى، البيان، 38/3. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص343. طقوش، تاريخ المسلمين، ص375 (الهامش).

⁵ ابن عذارى، البيان، 38/3.

⁶ أبو حفص الكاتب، أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد: من أهل بيت أدب ورياسة، ورياسة، له شعر مليح، وبلغ الكتابة، له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما، وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، وقد ذكر الحميدي أنّه رآه بالمرية بعد الأربعين والأربعمئة. الحميدي، الجذوة، 101.

⁷ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان الأموي (ت413هـ): ذكره النباهي في مرقبته، وابن بشكوال في صلته، وعياض في مداركه وغيرهم، أصله من جيان، وسكنوا قرطبة، كان من خير القضاة نزاهة، وعلمًا ومعرفة، ورياسة وعدلا، وقد ذكر عياض أنّه تقلد المظالم والأحكام في عهد المنصور العامري، ثم ولاه القضاء، وقد كان من جلة أصحابه وخواصه، ويفاوضه في تدبير الملك، وحضر معه جميع غزواته إلى الشمال ضد النصراني، وكان له داخل القصر بيت يأتيه آخر النهار ليتشاور مع المنصور العامري حسب ما ذكره القاضي عياض، وقد جمع له بين القضاء والصلاة، وفي عهد ابنه المظفر بقي في القضاء إلى أن وقع بينه وبين الوزير عيسى بن سعيد مسألة جعلت المظفر يبعده عن القضاء، وبعد تسعة أشهر أرجعه وعلت مكانته بل لم يكن المظفر يجري شئ من أمور المملكة

حديث القحطاني زمن المنصور العامري فلعله يوقف الجدل الذي قام بين القاضي ابن زرب والمنصور العامري في مسألة عدم خروج الخلافة عن قريش؟ كما نجد أنّ القاضي ابن ذكوان الذي كان مسائرا ومعطيا للشرعية إن صح التعبير للعامريين طيلة فترة حكمهم، والشاهد الأول على نصبيعة ولاية العهد لعبد الرحمن شنجول، قد انقلب عليهم في آخر عهده بالدولة العامرية¹ وفي الوقت نفسه قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر² المبايع بالخلافة سرا الدخول على الخليفة هشام وعزله ولقب حينها محمد بن هشام بالمهدي، وكانت نهاية عبد الرحمن في نفس السنة 399هـ/1009م حيث عندما وصله خبر المهدي رجع قافلا إلى قرطبة رغم نصيح الكثير له بعدم الرجوع لقرطبة، ثم تبرأ من ولاية العهد لما تخلى عنه حينئذ لعل ذلك يوقف أمر الفتنة، وتحت إصراره بالرجوع لقرطبة قبض عليه "ابن ذري" وجنده وهو المرسل من الخليفة محمد بن هشام المهدي، وقتل مع صديق له من بني قومس النصارى.³ لهذا نجد بعض المؤرخين يعتبرون سقوط الخلافة الأموية كان في السنة التي أعطيت فيها ولاية العهد لعبد الرحمن شنجول، ورغم أنّ الأخير تنازل عن ولاية العهد التي أدرك فعلا أنّها السبب في هذا الانقلاب عليه، وأنها فعلا نقطة تحول في مسار تاريخ الأندلس عموما والأمويين على الخصوص لكنها لم تشفع له، بل تعادها إلى أنّ الأمويين ومواليهم وأنصارهم قد أدركوا البعد الكبير الذي حاد عنه الخليفة هشام المؤيد عندما أعطى الخلافة من بعده لمن لا يستحقها، فهنا كانت الثورة، وضرورة إعطاء البيعة لمن يستحقها وهو هشام المهدي، وإلا لماذا لم ينتفض هؤلاء عندما كان المنصور العامري قد استولى على مقاليد الحكم ولم يترك للخليفة إلا الاسم على المنابر؟ باختصار مجموعة عوامل ولكن لم يقع أن أعلن نفسه خليفة أو طلب ولاية العهد له كما فعل ابنه، وهنا نجد الخليفة الجديد المهدي قد بويع ليكون خليفة بديلا عن هشام المؤيد وقد توفر فيه شرط النسب.

كانت الجراة العامرية على طلب الخلافة من الأسباب الهامة التي أدت لسقوط الخلافة الأموية فكان عدد خلفاء بني أمية الذين حكموا إلى نهاية الدولة (399-422هـ) يفوق الخلفاء الذين حكموا الدولة قبل الفتنة، وكانت النتيجة عزل آخر خلفاء الدولة الأموية "هشام الثالث المعتد بالله في 12 ذي الحجة 422هـ/30 نوفمبر 1031م وأعلن الوزير "أبو حزم بن جهور" بعد اجتماعه بكبار قرطبة وشيوخها انتهاء رسم الخلافة جملة، لعدم وجود من يستحقها، ونودي في الأسواق والأرياض بأن لا يبقى في قرطبة أحد من بني أمية وأن

إلا عن مشورة ابن ذكوان، وعلى هذا سار عبد الرحمن شنجول، إذ جمع له الوزارة وقاضي القضاة. ابن الفرضي، تاريخ، ص 194-195. النباهي، المرقبة، ص 99-102. عياض، المدارك، 2/253-256.

¹ كان حينها القاضي ابن ذكوان في جيش عبد الرحمن شنجول متوجهين لفي غزوة للشمال. ابن عذارى، البيان، 3/67-68.

² محمد بن هشام: كنيته أبو أيوب، تمت بيعته سرا بعد إعلان الخليفة هشام المؤيد ولاية العهد لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وكان الناس يباعونه سرا بأطراف قرطبة وسفح جبلها، وكان جسورا و ثائرا ومخاطرا، لا يدري في أي واد يهلك، ولما ذهب ولي العهد الجديد عبد الرحمن بن المنصور للغزو، تمكن محمد من الدخول إلى دار السلطان في تاريخ 16 جمادى الآخرة 399هـ، ودخل القصر بعد فتن ومفاوضات مع هشام المؤيد، وبايعته المروانية والهاشمية والوزراء.. وتلقب بالمهدي. لمعرفة المزيد عن دولته، وما حلّ بمدينة الزاهرة من خراب خلال هذه الفترة، انظر: ابن الخطيب، تاريخ، ص 109 وما بعدها. ابن عذارى، البيان، 3/59 ما بعدها.

³ كان وراء تدبير الانقلاب مجموعة، ومن أهمهم أم عبد الملك بن المنصور المسماة بالذلفاء، وقد كانت امرأة ذكية وكانت ترى بأنّ إبنها قتله أخوه بالسّم، لهذا حاولت الانتقام وحرّضت بني أمية ضده، وكذا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهو المبايع بالخلافة سرا، وهو من البيت الأموي. للتوسع أكثر أنظر: ابن خلدون: تاريخ 4/190. المقرئ، النفع، 1/406. ابن الخطيب، تاريخ، ص 89 وما بعدها. ابن عذارى، البيان، 3/38 و ما بعدها. ابن حزم، رسالة نقط العروس، مصدر سابق، ص 85. عنان، دولة الإسلام، 1/630 وما بعدها. نعني، تاريخ الدولة، ص 483 وما بعدها. العبادي، في التاريخ العباسي و الأندلسي، ص 464. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 343 وما بعدها. أبو طعمة، مرجع سابق، ص 107.

لا يؤويهم أحد.¹ وهكذا سقطت الخلافة الأموية رسمياً، فتشتت أمر الجزيرة الأندلسية لطوائف وإمارات وممالك يقاتل بعضها بعضاً، ويستنجد البعض الآخر بالنصارى ضد إخوانهم المسلمين، وهكذا شهدت الأندلس سياسياً في مطلع القرن 5هـ/11م فوضى شاملة مست جميع الأصعدة خاصة نظام الحكم ممثلاً في خليفة المسلمين الذي يعتبر أعلى هرم السلطة، فحكم الأندلس خلال 22 سنة عدد من الخلفاء فاق مجموعهم عدد الذين حكموا الخلافة خلال 85 سنة وهو تاريخ إعلانها سنة 316 هـ، وأصبح الخليفة يدا طائفة لبعض فئات المجتمع ذات الشوكة خاصة الصقلية والبربر، وتزامن ذلك مع قيام دويلات صغيرة مستقلة عن مركز الخلافة في قرطبة خاصة وأن بعض العصبية القبلية كما سئى قد إنزوت في المناطق الطبيعية المحصنة التي كانت تتولى الأمر عليها، وأصبحت العاصمة عرضة للنهب والسرقة وضاق أهلها من ضعف خلفاء بني أمية في ضل عدم وجود جيش قوي تابع مباشرة للدولة، حتى إجتمع كبار قرطبة وشيوخها وخرجوا بما أعلنه الوزير أبو حزم جهور بسقوط رسم الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها وعزل آخر خليفة أموي هشام الثالث المعتد بالله في 12 ذي الحجة 422هـ/30 نوفمبر 1031م.

IV. الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية (422-479هـ/1031-1086م): دخلت الأندلس رسمياً عصراً من الانقسامات السياسية وأضحت الجزيرة سيفسأ من الممالك والدول وصل عددها إلى ما يقارب 60 إمارة تفاوتت فيما بينها من حيث المساحة الجغرافية، والقوة العسكرية، والمدة الزمنية التي دامت، والغنى وعدد السكان وغير ذلك من الخصائص، وفي الوقت الذي برز فيه نجم مدن كإشبيلية وبلنسية والمرية وبطليوس وغيرهم، أصبح التنافس البطولي بين هذه المدن كبير مما جعلها أكثر إزدهاراً في الحياة الفكرية²، وأطلق على هذه الحقبة عصر الدول المستقلة، أو عصر الطوائف³ وكانت تلك فرصة هامة لنصارى الشمال لتوسيع حركة الاسترداد الإسبانية، وعن عصر الطوائف الثاني(422-479هـ/1031-1086م) وما عرفه من كثرة للإمارات والممالك القائمة قال ابن رشيق القيرواني (358-456هـ/995-1063م):

مما يزهدي في أرض أندلس تلقب معتضدٍ فيها ومعتمدٍ
ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد⁴

إنّ الحديث عن دويلات الطوائف سيأخذ من الصفحات لشرح وتوضيح أصولهم ومذاهبهم، ورقعتهم الجغرافية وعلاقاتهم مع إخوانهم المسلمين ومع النصارى، فإنّي في هذه المداخلة سأورد أسماء بعض هذه الممالك وأقواها فقط، ويمكن تقسيمها إلى الفئات التالية:

¹ للتوسع أنظر: ابن عذارى، البيان، 145/3 وما بعدها. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أهل المغرب، تح. محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 42-44. ابن الخطيب، تاريخ، ص 138-140. طقوش، تاريخ المسلمين، ص 417-418. ننعبي، تاريخ الدولة، 526-531. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، 358 وما بعدها.

² ليوبولدو طريس بلباس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ج1، ترجمة محمد يعلى، مراجعة بوجعة العبقري، دار أبي الرقراق، ط1، المملكة المغربية، 2007، ص 146 وما بعدها.

³ وقع إختلاف في الفترة التي بدأ فيها وكذا التي انتهى فيها، فمنهم من بدأها بتاريخ 400هـ أي تاريخ الفتنة البربرية ومبايعة سليمان المستعين خليفة في قرطبة، ومنهم من بدأها بتاريخ 422هـ وهو تاريخ إعلان أبو حزم جهور سقوط رسم الخلافة الأموية وبشأن نهايته فهناك من أخذ تاريخ 479هـ وهو تاريخ دخول المرابطين للأندلس وإننتصارهم في معركة الزلاقة، ومنهم من أخذ بتاريخ 484هـ وهو تاريخ سقوط دولة بني عباد في إشبيلية بإعتبارها أقوى إمارات الأندلس وأوسعها، ومنهم من إختار تاريخ 503هـ وهو تاريخ سقوط إمارة بني هود وهي آخر إمارة سقطت من إمارات ملوك الطوائف.

⁴ أنظر: المقرئ، النفع، 1/205.

1- الفئة العربية الأرستقراطية وموالي بني أمية: منهم نجد:

أ- بنو عباد¹ في اشبيلية (414-484هـ/1023-1091م) حاولوا أخذ شرعية الخلافة لهم عندما أظهروا شبيها للخليفة هشام المؤيد، وقالوا أنه أعطى الخلافة قبل موته لبني عباد من بعده.

ب- دولة بني جهور في قرطبة (422-462هـ/1031-1070م).

ت- بنو تجيب في سرقسطة² (408-430هـ/1017-1039م).

ث- بنو هود (من الأدارسة) في الثغر الأعلى (431-512هـ/1039-1118م)

2- البربر: ويمكن تقسيمهم لثلاث مجموعات هي:

أ- البربر الأوائل الذين دخلوا الأندلس أيام الفتح: منهم:

✚ بنو الأفطس ملوك بطليوس وغرب الأندلس (413-488هـ/1022-1095م)

✚ بنو ذو النون ملوك طليطلة (427-478هـ/1036-1085م):

ب- البربر الذين دخلوا الأندلس في العهد العامري: استخدمهم العامريون في الجيش:

✚ بنو زيري الصنهاجيين في غرناطة ومالقة (403-483هـ/1012-1090م):

✚ بنو حمود الحسينيون³ (407-449هـ/1016-1057م):

3- العامريون وخدامهم: وهم بقايا أسرة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ومن كان في خدمتهم من الصقالبة، وقد استكثر

منهم العامريون وخدموا في القصر حتى وصل عددهم في عهد عبد الملك بن محمد بن أبي عامر ستة وعشرون فتا حسب ابن الخطيب⁴، من دولهم نجد:

✚ خيران وزهير الصقلبيان في المرية (404-429هـ/419-م)

✚ عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمان شنجول بن محمد بن أبي عامر (429-1037-)

✚ مبارك ومظفر الصقلبيان في بلنسية وشاطبة قبل عبد العزيز العامري (401-408هـ/1010-1017م)

✚ مجاهد الصقلبي في دانية وجزر البليار (400-484هـ/1009-1091م)

وقد كان لسقوط مدينة طليطلة في يد ألفونسو السادس الإسباني سنة 478هـ/1085م وقع كبير عند ملوك الطوائف وقد عبّر

عن ذلك الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال بقوله: يا أهل أندلس حثوا مطيكمُ فما المقام بما إلا من الغلط

¹ بنو عباد: ينتمي بني عباد إلى قبيلة لخم العربية، فهم من ولد المنذر بن ماء السماء. ابن عذارى، البيان، 193/3. مجهول، تاريخ الأندلس، ص260. ابن بسام، الذخيرة، 2/ص5. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص152.

² تحكم بنو تجيب بزعامة محمد بن عبد الرحمان المعروف بالأنقر على سرقسطة أثناء عصر الطوائف الأول، وقد أفرهم الأمير عبد الله بن محمد عليها ليضمن ولائهم له، وفي عهد الحاجب المنصور العامري أقر يحيى بن عبد الرحمان على هذا الثغر 379هـ/989م وبقي فيه حتى توفي 408هـ/1017م.

³ هناك من يصنّف بني حمود ضمن الدول العربية وذلك لأنّ أصلهم عربي، ومنهم يضمهم مع الدول البربرية وذلك لأنّ بني حمود تبرروا في لسانهم وثقافتهم حتى أضحووا بربراً والأكثر أنّ أتباعهم وسندهم القوي هو العنصر البربري. للتوسع في دولتهم أنظر: ابن الخطيب، أعمال، ص128 وما بعدها. خميسي (بولعراس)، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، مذكرة ماجستير، تحت إشراف أ.د. مسعود مزيودي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007/2006.

⁴ من مشاهير الفتيان الصقالبة واضح، مظفر، مجاهد، زهير، خيران، واثق وغيرهم. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص103-104.

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفظ¹ (الوعاء)
وقال آخر: وتفرقوا شيعا فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر.

في ظل هذه الأزمة السياسية التي شهدتها الأندلس، تبرز القيادة المغربية الحكيمة ممثلة في أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ويدخل الأندلس بعد طلب أهلها وعلمائها وبعض قادتها السياسيين، وتتجلى القوة المرابطية في معركة الزلاقة 479هـ التي ينتصر فيها الأمير يوسف على الملك النصراني ألفونسو السادس، وستضخ في الأندلس دما جديدا ونفسا طويلا أرجع للأندلس قليلا من الهيبة وأخر سقوطها النهائي ردحا من الزمن.

وفي الختام، ما يهمنا نحن هنا هو أنّ الخلافة سواء في الأندلس أو في حواضر الدول الإسلامية الأخرى كان لها دور كبير في ربط وحدة الأمة، فسقوط بغداد في يد المغول والتتار سنة 1258هـ أدخل المشرق في صراع بيني سهّل على القوى الخارجية التحكم في أجزائه، وسقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م جعل الأمة الإسلامية تنقسم لكيانات سياسية لا تزال في تناحر مستمر للوقت الحالي، وأصبحت اهتمامات الشعوب وسياساتها قُطرية، ثم وقعت الشعوب الإسلامية والعربية في قبضة الاحتلال الفرنسي والإنجليزي والإيطالي، والروسي، وسقطت فلسطين في يد الصهاينة سنة 1948م، وبقيت القضية إلى غاية الوقت الحالي، وحاليا رغم الاستقلال فإنّ الهيمنة والتغلب الغربي باق على رأس الشعوب المسلمة ونموذج أفغانستان والعراق، الصومال وغيرها دليل على ذلك، وعليه فلا راحة للعالم الإسلامي حاليا إلاّ بتحقيق حاكمية الله في الأرض، خاصة إذا علمنا أنّ جميع مقومات الأمة متوفرة من دين مشترك، ولغة عربية على اعتبار أنّها لغة القرآن، الرقعة الجغرافية التي لا تفصلها الحواجز الكثيرة، فئات شبابية، ثروات معدنية وطاقوية متعددة ومتنوعة، وأول معالم الوحدة والنصر زوال الكيان الصهيوني من أرض فلسطين وهو الذي وضع في قلب الأراضي العربية ليمنع الوحدة العربية ومنها الإسلامية تحت راية الخلافة.

¹ المقرّي، النفع، 121/6.